التعلم بالحب والشغف .. ولغة العابرين

أميرة عوض الله

أهو ترتيبٌ القدر أم هي حاجاتنا من تأخذنا خلسةً عبر مسارات هذه الحياة، لتنتهي بنا في نهاية المطاف نحو بداية أخرى جديدة ... وكأنها تريدُ أن تصنع منا ذلك الآخر فيناً، فتضعنا داخلَ تحديات أخرى كبيرة مشابهة لما كنا نحاربه قديماً بأناملنا الصغيرة. نعم؛ وكأننا اليوم رسولٌ بعثنا لنحدث تغييراً ما في سير هذا الزمن!

لا أخفي أن المدرسة كانت من أجمل المراحل في حياتي، ولكن كانت من أصعبها أيضاً، نعم إنها «السهل الممتنع»، بين أن تكون أنت كما تريد بسجيتك، أو أن تكون كما يريدون هم بقوانينهم وأنظمتهم. فلطالما كانت صورة المدرسة هي ذلك المكان الذي يأخذنا من نومنا الهادئ وأحلامنا الصغيرة واهتماماتنا الجميلة، ليجعل منا ذلك الكائن المتلقي في قوالب صفية صغيرة تخضع لسلطة المعلمة؛ تلك الكائن الغريب عنا بعض الشيء، فلطالما كانت في نظر الجميع معصومةً عن الخطأ، تأمر وتنهى، وتعاقبنا أحياناً إن أخطأنا أو قصرنا في تقدير بعض الأمور، أو خرجنا أحياناً أخرى عن قوانينها الوضعية، محاولين البحث عن أنفسنا وعن أجوبة لأسئلتنا الكثيرة ... ولكن الحياة أو بعض أولئك العابرين فيها هم قادرون أيضاً على تغيير أحكامنا على الأشياء، وعكس موازين حبنا أو كرهنا لها نحو الأفضل، ولكن كيف؟ هذا ما ستعرفونه في ما بعد!

لعلي لم أكن من النوع المشاغب في مرحلة الابتدائي، أو هو الخوف ما كان يجعلني أشاغب بصمت خلسةً عن المعلمة، وخوفاً من عقابها الوخيم، بعد أن فشلت أنا وصديقاتي في أول محاولة للهرب من سور المدرسة، باحثات عن مكان آخر ليس مسوراً بالكبت. وفي الجانب المقابل، كانت هناك معلمة أخرى جميلة المظهر، بشوشة الوجه، وواسعة الصدر، دائماً ما تزين وجهها تلك الابتسامة الصادقة حتى في وقت العقاب أيضاً، «كلوريا» وكأنها كانت تريد أن تقول لنا حينها: «إن المعلم هو الموجه والميسر وليس الحاكم»، وعلى الرغم من أننا فهمنا ذلك متأخراً، فقد كان يكفينا ذلك الشعور حينها بالحب والأمن والشغف الصادق.

أما المراحل العليا من الدراسة، فكانت الأكثر زخماً، ربما لأن أسئلتنا كطلبة تكبر مع كبر احتياجاتنا ونموها المتسارع، ومع تزاحمنا في دائرة الحياة الكبيرة التي قد تفرض علينا من الأحداث ما لا يد لنا فيها، وكأننا كنا نبحث دائماً عن فسحة ما تضيء لنا شعلةً في الطريق، لنبدأ بتشكيل رؤيةٍ واضحةٍ

عن الحياة، نبحث عن شخص ما خارجنا، نثق به، فيحاورنا في أخطائنا، ويعزز تطورنا ونمونا نحو الأفضل، ليساعدنا بدوره في البحث عن أسئلة جديدة وإجابات عديدة للكثير من الأمور التي تدور من حولنا في هذه الحياة. الأمور التي لم يتسع لها أي منهاج، و لم يحتضنها أيضاً أيّ معلم، فأغلبهم كانوا منشغلين في إنهاء المنهاج، وإتمام المتطلبات الفصلية كافة، ناسين أو متناسين أننا موضع العملية التعليمية والمحور الأساسي في إنجاح التعلم، والحكم على مدى فاعليته ومردوده على المجتمع.

فربما هو قدري أن أكون في مدرسة دكتاتورية بعض الشيء، حيث أن القوانين فيها شيء منزل لا مجال فيه للنقاش أو التسوية، وأن أي مخالفة تعرضك للتوبيخ والتجريح القاسي بعض الشيء أيضاً ... ولكن الفارق هنا أننا كبرنا، وأن شخصيتنا ما عادت تصدق تلك المعتقدات حول كون المعلمة هي «البُعبُع المخيف»، لذلك كنا نتحايل على المعلمات ونفرض احترامهن لنا بارتفاع معدلاتنا الدراسية التي تعتبر الحكم الأول والأخير في مدارسنا التعليمية، وبعد إيفاء هذا الشرط، كنا ننطلق كشلل من الصديقات لنمارس الحياة بالحب والشغف، ونجرب فنصيب ونخطئ، ونختبر الحياة، لنقول بعدها ونحن مقتنعون تماماً نعم؛ نحن الآن في دائرة التعلم.

لم أفكر يوماً أنني سوف أدخل المدرسة مرة أخرى بعد تركها، بل بعكس الجميع رحت أنسج أحلامي نحو عالم القضاة، فتخيلت أني سوف أكون في المستقبل محامية أطبق القانون، وأحرص دائماً على أن لا أسمح للخطأ أن يأخذ مجراه في هذا الوطن ... فقد رحب الكثير من أهلي بهذه الفكرة، وشجعني الكثير من المعلمات أيضاً. ولكن في الحقيقة لم أكن أدرك حينها هل كان قراري المهني ما هو إلا انعكاس لتلك التربية الحازمة التي تلقيتها في المدرسة، وكأنني كنت أتعلم أن الحياة هي مجموعة من القوانين التي يجب أن تطبق لا أكثر ولا أقل!

لعلها جاءت اللحظة المناسبة لاستيضاح تلك الجملة التي بدأت بها قصتي .. «لكن الحياة أو بعض أولئك العابرين فيها هم قادرون أيضاً على تغيير أحكامنا على الأشياء، وعكس موازين حبنا أو كرهنا لها نحو الأفضل». نعم؛ فإن بعض المعلمات، بامتهانهم الصحيح لمهنة المعلمة، قادرات على تغيير تلك الوصمة الخاطئة حول عملية التعلم والمعلم، فبحبهن وشغفهن وحكمتهن وسعة صدورهن، هن قادرات على أن يجعلن منا ذلك الناقد والمفكر والمنتج أيضاً ... ولكن لا أعلم لمَ الأشياء الجميلة حينها لم تكن طويلة، بل كانت سرعان ما تنتهي. فبعد وفاة تلك المعلمة «رفقة» التي كانت اسماً على مسمى، والتي لطالما احتضنت أجيالاً ورفقت بنموهم، قررت حينها أن أترك مدرستي وأترك كل تلك الصداقات الجميلة التي كونتها، والتي ما زلت أحتفظ بها إلى هذا اليوم، اعتقاداً مني أن خلف هذا السور يوجد عالمٌ آخر؛ عالمٌ مليء بالحقائق الشائكة التي لا يمكن الجزم بصحتها من خطئها أيضاً، وأن الحياة هي أكبر مما تعلمناه أو نتعلمه، وأن المعلمة المليئة بالحب والشغف لم تمت، بل هي موجودة بأخلاقياتها المهنية والإنسانية في الكثيرين من الأشخاص من حولنا. فانتقلت حينها وكانت سنتي الدراسية الأخيرة إلى مدرسة جديدة في مدينة أخرى، وعرفت حينا أن الحياة أكبر من أن نصدر عليها حكمنا ... لأن الحياة أمكنة وأزمنة وشخوص كثيرة مختلفة، بل إنها مجموعةٌ من الأشياء، ولكي نحكم عليها يجب أن نكون قد جربنا تلك الأشياء كلها!

كانت تلك السنة هي السنة الفارقة بالنسبة لي، فقد تحملت مسؤولية ذاتي، وتعرفت على شخصيتي، وتمكنت من تكوين علاقات جيدة مع أشخاص من بيئات مختلفة، وتمكنت أيضاً من اتّخاذ قراري حول تخصصي المهني عن قناعة وحب وشغف ... ربما هذا أحد ما يجب أن نتعلمه عن الحياة «كيف نعيش الحياة وليس كيف نعرفها».

كانت حياتي الجامعية جميلة جداً، وكنت أحب تخصص علم النفس الذي اخترته بملء إرادتي وعن قناعة كاملة، لدرجة أنني كنت من المميزات في دفعتي على الرغم من أنني لم أكن من أولئك الذين يبصمون المواد ويحصلون على العلامات المغلقة، ولكني كنت أعيش التخصص بالحب والشغف، وكنت أنتهز الفرصة دائماً للعب دور المعلمة في الكثير من المحاضرات، حتى أصبحت في سنتي الأخيرة ملقبةً بسفيرة الكلية من بعض أساتذة كليتنا، الذين كانوا يؤمنون بشخصية الطلبة وقدرتهم، وينظرون إليهم دائماً على أنهم قنبلة موقوتة الإبداع والعطاء. حقيقةً، ربما هو حبنا لاختياراتنا في الحياة هو من يجعل منا مبدعين ومعطائين.

يجب أن أعترف أنني كنت أعشق مهنتي، وأؤمن بقدرتي على التغيير وعلى العطاء، ولكني في الحقيقة لم أكن أتقبل حينها، وبعد أن تخرجت وبحثتُ طويلاً عن عملٍ في الميدان

الاجتماعي كأخصائية اجتماعية، أن ينتهي بي المطاف حينها بالعودة إلى المدرسة. ربما هو الخوف من الصراع بين تلك القوانين والأعراف المعمول بها، والبيئة التقليدية السائدة على هذه المهنة، وبين ما تؤمنُ أنت به وتريد تطبيقه والحياة المهنية التي تتوق بشغفٍ إليها ... فلم يكن من السهل عليّ تقبل فكرة أن أكون مرشدة تربوية في المدارس، وأن أرى من جديد تلك النماذج المتكررة من القتلِ لطاقات الطلبة، علاوة على الحياة النمطية التي يعيشها كلٌ من المعلم والطالب، وكأننا في فيلمٍ يعرض باللون الأبيض والأسود. كل تلك المخاوف والكثير من التساؤلات كانت تراودني حول مدى جاهزيتي لخوض مثل هذه التجربة، والتمكن من النجاح فيها. ولكن كل تلك الأشياء وأكثر، سرعان ما تلاشت وأنا في أحضان أولئك الطلبة الذين لم أكبر بعضهم سوى ببضع سنوات قليلة، حيث استطاعوا بشغفهم أن يمتلكوا قدرة رهيبة على امتصاص خوفي وترددي، وإطلاق تلك الروح الجميلة والمعطاءة بداخلي .. ولكن أنا لا أقول إن هذه المهنة سهلة، ولكنها على الرغم من صعوبتها وكثرة الصراعات والضغوطات التي فيها، ولاسيما التي تقع على عاتق المرشدة التربوية، لما تلعبه من دور كبير في التيسير والتوجيه والفصل أيضاً في أمورٍ كثيرة، علاوةً على العمل كمرشدة في مدرستين، لم تكن تجربتي سهلة أبداً، وبخاصة في ظل وجود الكثير من المعلمات المتعصبات اللواتي ما زلن يسرن على النهج التقليدي الذي لا يعطي للطلبة تلك المساحة الكافية للتطور الطبيعي والنمو الاجتماعي السليم، وينظر دائماً إلى مهنة الإرشاد على أنها من الكماليات في عملية التربية والتعليم، وأنه المحرض أحياناً لأولئك الطلبة .. ولكن، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت ثقتي بنفسي عالية، وكنت مصممة على إحداث تغييرٍ ولو بسيط، فاتخذت من طلبتي ذلك المتنفس الأكبر لي، وبدأت أبني بيني وبينهم جسوراً متينةً من الثقة، وأحاول أن أرمم معهم المعنى الحقيقي للتعلم ... فأسمعهم وأستمع إليهم بشغفٍ وحب، فالحياة لا تقتصر على اللون الأبيض والأسود فحسب، بل إن الحياة مزيجٌ من الألوان الجميلة، وكلٌ يختار لونه ويختار أيضاً شكل حياته الذي يريد أن يعيش عليه ... فكم كان جميلاً ذلك اللون من الحب والشغف في التعلم الذي جعلني أملك طلبتي، وجعلهم هم أيضاً يملكونني بكل حب وشغف، ويتقاسمون معي مسؤولية هذه الرسالة الصادقة نحو التعلم، فكم من مرشدةٍ مليئةٍ بالشغف هناك بعدي على هذا الطريق ... .

مدرسة بيت فجار الثانوية